

في الإسرائيليات وإكساب الخطاب الديني العربي الإسلامي الشرعية

وحيد السعفي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

تونس

إنّ الدين لا يقوم إلّا حيث كان الدين. إنّ الدين لا يقوم إلّا على
أنقاض الدين. إنّ الدين الذي يقوم لا يكتسب شرعية إلّا من ذاك الدين
الذي على أنقاضه قام أو ذاك الذي كان في الناس قبله سائداً. ألا ترى
الأنجيل ورسائل الرسل في العهد الجديد قد احتاجت حتى تنشر دين
المسيح إلى أقوال أنبياء العهد القديم تستدلّ بها على صدق يسوع المسيح
وقد رأت فيها ما يبشّر يسوع المسيح منذ عهد سحيق⁽¹⁾ ؟ ألا تراها قد
جعلت يسوع المسيح يردّد في الناس ويقول : « لا تظنّوا أنّي جئتُ لأنقُضَ
الشريعة أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقُضَ بلّ لأتمّم⁽²⁾ » ؟ ألا ترى القرآن يجعل

(1) العهد الجديد، إنجيل متى، 23-22/1، العهد القديم، سفر إرميا، 6-5/23، سفر

إشعيا، 14-1/7، المزمور 15-7/105.

(2) العهد الجديد، إنجيل متى، 17/5.

أنبياء الله بعضهم تبعاً لبعض، يُصدق لاحقهم بسابقهم، ويُبشّر سابقهم بلاحقهم. وقد جاء في مُحكم الآيات : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ⁽³⁾ ۝ أَلَا تَرَاهُ قَدْ اُحتوى كثيراً بما جاء في الكتب القديمة وجعل الكتب القديمة ناطقة بما جاء فيه من أقوال وجعل محمداً ۝ الرسولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ⁽⁴⁾ ۝، فردد من بعدُ الرسول : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ ⁽⁵⁾ ».

إذا كان ذلك كذلك فلا تعجب أن يحتاج الإسلام وهو يتحسّس معالم الطريق ويرسم فيها خطاه بثبات إلى شرعية من دين النصارى أو دين اليهود حتى ينشر تعاليمه ويُمكّن لأحكامه في الأرض ويفرض في الملا نظامه. اذكر ورقة بن نوفل وما كان من أمره.

تروي القصص الشهيرة أن أمر الوحي في البدء كان على محمدٍ عسيراً. إذا جاءه الوحي غَطَّه المَلَكُ حتّى إذا بَلَغَ مِنْهُ الْجُهْدَ أَرْسَلَهُ فَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ رَجِيفاً صَائِحاً : « دَثْرُونِي دَثْرُونِي » كمن ضربته الصاعقة أو برّح

(3) الصف 6/61.

(4) الأعراف 157/7.

(5) أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث عدد 8595. وانظر كذلك : مالك، الموطأ، كتاب الجامع.

البرد القارس بمفاصله والعظام⁽⁶⁾. وإذا «فَرَّ الْوَحْيُ فِتْرَةً حَزَنَ حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ⁽⁷⁾». عصفت به ريح الدين الجديد حتى خشي على نفسه المس وخشي عليه أهله ذلك، فقام الدين القديم أمامه سراجاً مضيئاً يثبت خطاه في أرض الدين الميَّادة.

(6). حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بَكْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الرُّبَيْعِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَعَم) (مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّاحَّةُ فِي النَّوْمِ فَكَأَن لَّا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءَ وَكَأَن يَخْلُو بِغَارٍ جِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ الشَّعْبُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِدَلِكْ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ فَإِنَّمَا أَنَا بِقَارِي قَالَ فَآخِذْنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِي فَآخِذْنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِي فَآخِذْنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) فَارْجِعْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَعَم) يَرْجُفُ فَوَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ فَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلَّا وَاللَّهِ مَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ وَتَحْمِلَ الْكُلَّ وَتَكْسِبُ الْمُدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي أَجَاهِيلِيَّةٍ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا فَدَعَا عَمِي فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِّي أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ (صَلَعَم) خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا الشَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذَا يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَعَم) أَوْ مُخْرِجِي هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِي مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عَوْدِي وَإِنْ يَدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوْفِّي وَتَنْسَرِ الْوَحْيُ، البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، حديث عدد 3، وانظر: مسلم، الصحيح،

كتاب الإيمان، حديث عدد 231، 233، الترمذي، السنن، كتاب المناقب، حديث عدد 3565، أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند الكثرين، حديث عدد 14502، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث عدد 24046، 24681، 24768. وانظر كذلك كتب التفسير مثلاً، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، م 12، ص ص 644 - 645، ابن كثير، التفسير، بيروت، دار الجليل، 1990، ج 4، ص ص 529 - 530.

(7) البخاري، الصحيح، كتاب التعبير، حديث عدد 6467، أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث عدد 24768.

والدين القديم تشكّل يومها رجلا من رجال الجزيرة «قد تنصّر في الجاهليّة وكان يكتّب الكتاب العبرانيّ فيكتّب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتّب»⁽⁸⁾، «وكان يكتّب الكتاب العربيّ فيكتّب بالعربيّة من الإنجيل ما شاء الله أن يكتّب»⁽⁹⁾. حكى له محمد ما رأى وسمع، أشياء كان محمد يجهل، لا هي حدثت عليه من قبل، ولا هو علم أنها حدثت على غيره. أشياء كان ورقة يعرفها. فتشكّل ورقة يومها ورقة يقرأ فيها محمد العلم الذي كان عنه خفي. وعلم ورقة الورقة تشكّل يومها ناموساً ألهم من قبل موسى النبوة وعاد اليوم يلهم محمداً ما كان ألهم موسى أمسي. وجد محمد القصّة عند ورقة بن نوفل ما دلّه على الناموس الأكبر. وناموس ورقة الذي كان قد تنصّر وعرف كتّب اليهود وكتّب الكتاب العبريّ وكتّب الكتاب العربيّ، لم يكن، كما فهم ذلك المفسّرون، ملكاً اسمه جبريل، بل شيئاً آخر لا علاقة له بهذا الأمر. كان ناموس ورقة لفظاً موروثاً عن اليونان، هو nomos، جعلوه للتعبير عن الشرع/القانون ونعتاً لتوراة اليهود التي هي أسفار العهد القديم الخمسة الأولى التي شكّلت عندهم النصّ الذي أوحاه يهوه لموسى⁽¹⁰⁾. ناموس محمد البدء لم يكن مجردة نسج على منوال موسى اليهود. كان علماً يعرفه اليونان. كان شرعاً يخضع الإنسان للقانون. كان وليد لغة أعطت البشرية المنطق والحكمة والبيان.

كان محمد، على لغة القرآن، أمياً لا كتاب له فاحتاج، حتى يفرض نظامه والقانون، إلى كتاب/كتب غيره، لتقوم حجة وبرهاناً على صدقه

(8) البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، حديث عدد 3، وانظر: مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، حديث عدد 231، 233، الترمذي، السنن، كتاب المناقب، حديث عدد 3565، أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث عدد 14502، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث عدد 24046، 24681، 24768.

(9) البخاري، الصحيح، كتاب التعبير، حديث عدد 6467، أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث عدد 24768.

(10) انظر : M. Rodinson, Mahomet, Paris, Seuil, 1961, p. 100.

وصدق دعوته والشرع الذي جاء به الناس في تلك الجزيرة التي لم تعرف الكتاب. وكان ورقةً سبيله إلى ذلك الكتاب أو تلك الكتب. وكان ناموس اليونان خيرَ مُعَبِّرٍ وجيزٍ عما أَلَمَ به في عالم الدين الجديد عليه.

كَانَ هذه الحادثة التي كانت، أو القصة التي كان يمكن أن تكون، أثرت في الإسلام الناشئ وأضفت على خطابه الديني من روحها نصيباً، فصار يبحث له عن شرعية عند أهل الكتاب من يهود ونصارى، حتى امتلأت النصوص التي بالقرآن حفت بأخبار طوال أطلقوا عليها في لاحق الأيام الإسرائيلية وكانت عند المفسرين الأول مجرد قولٍ لأهل الكتاب يؤتى به للاستشهاد والاعتضاد. قامت هذه الأخبارُ الطوال التي نسبوها إلى أهل الكتاب علماً راسخاً لا يشكّون فيه، فقامت في وجه الأمية التي نُعتوا بها سلاحاً ليس كمثله سلاح، يفرضُ عُذرةَ الأمية التي نُعتوا بها. قامت الإسرائيلية إذن في الخطاب الديني العربي الإسلامي مقابلاً للأمية. كانت بنت الكتاب فقامت في وجه اللاكتاب.

على هذه الإسرائيلية نصبوا مجموعة من الناس أسماؤهم تحدث بالوضع والاختلاق والابتداع في عالم القصص العجيب. هذا ورقة بن نوفل كان ورقة من أصل كتاب. وهذا كعبُ الأخبار كان صرحاً ككعبة الزوَار ترتفع على عرش الأخبار من يهود ذاك الزمان. وهذا وهب بن منبه كان هبة السماء إلى أرض الناس فقام يرشد الناس ويُنَبِّههم إلى ما كان. كَانَتْ هذه الأسماء كانت دالة على وظائف وليست أسماء عَرَفَ الناس أصحابها بها. وهذا لا يُنقص من أمرها إذ أمرها في وظائفها.

وشاءت صُدِفَ القصص الجميلة أن يكون القائمون على أمر الإسرائيلية يتمون إلى فضاء واحد، إلى اليمن الذي كان منذ كان الزمان مهدياً لعجيب القصص الملاح وغريب الأخبار الطوال. كان اليمنُ مهدَ الجناتِ العدي. وكان منبت الرواة والقصّاص، ولَمَّا رَوَوْا وقَصُّوا «لَوْنُوا

تاريخهم القديم بلون زاهٍ جميل، وزعموا أن قحطان [جدّهم الأوّل] ابنُ هود عليه السلام ⁽¹¹⁾..

كان هودٌ رسولَ عادٍ، ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⁽¹²⁾ ۞. كان منهم وكان أخاهم ⁽¹³⁾. كان وكانوا حسب المؤرّخين والرواة ومفسّري القرآن عرباً، «مساكنهم باليمن ⁽¹⁴⁾». وكانوا «في غاية من [...] الأرزاق الدارّة والأموال والجّنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار ⁽¹⁵⁾». ولكنّ هوداً، نبيّ القصص العربيّ اليمنيّ الذي أرسل إلى عادٍ، إخوته العربِ اليمنيين، تفوح من اسمه رائحة اليهود. أوّليس هود مشتقاً من الجذر (ه و د) الذي منه «هاد وتهود إذا صار يهودياً ⁽¹⁶⁾» ؟ أوّلم يُسمّ القرآنُ اليهودَ هوداً ⁽¹⁷⁾ ؟ أوّلم تُسمّ اليهودُ يهوداً «اشتقاقاً من هادوا أي تابوا ⁽¹⁸⁾» ؟

فإذا كان جدّ اليمن الأوّل على علاقة في تشكّله باليهودية واليهود فلا تعجب أن يكون رواية الإسرائيليات يهوداً من اليمن الذي كان على علاقة باليهود. كان اليمن الخصب، بلد «الأرزاق الدارّة والأموال والجّنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار ⁽¹⁹⁾»، فضاءً خصباً فيه نما القصّ وترعرعت الإسرائيليات حتى طغت على ثقافة الناس. هنا نشأ كعب الأحبار صورة

(11) أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 1975، ص 6.

(12) الفجر 8-7/89.

(13) الاعراف 65/7.

(14) ابن كثير، التفسير، ج 2، ص 215.

(15) ابن كثير، التفسير، ج 3، ص 330.

(16) ابن منظور، لسان العرب، مادة هود.

(17) البقرة 140، 135، 111/2.

(18) ابن منظور، لسان العرب، مادة هود.

(19) ابن كثير، التفسير، ج 3، ص 330.

لسيد اليهود الذي دخل في خدمة الإسلام. وهنا نشأ وهبُ بن منبه ذاك الذي دخل أبوه الإسلام فجاء مسلماً في خدمة الإسلام. كل شيء في عالم اليمن كان يُحدث يومها بالآخر، والآخر تشكّل يومها هوداً أو يهوداً قصّوا فهلکوا أو هلکوا فقصّوا⁽²⁰⁾، فأمحى دينهم وازدان الإسلام بمنّ فيهم لعبة الزمان منهم فاعتنق الإسلام وجاء يُغنيه ببديع القصص.

كل شيء في عالم الخطاب الديني العربي الإسلامي كان بحساب. انظر اليمن في هذا الخطاب. ألا تراه قد تشكّل فضاءً عربياً يعجّ بقصص اليهود، وعيناً لا تنضب تجود بالاسرائيلات، وكتاباً مفتوحاً يقرأ فيه القصص أخبار الأمم الماضية وأساطير الأولين؟ ألا تراه قد قام وعاءٌ احتوى كل ما رفضه القرآن ورفضته السنة الثقافية التي قامت تکرّس ما رفض القرآن وتزيده فيه؟ لقد شاء القرآن أن يكون محمداً أمياً عربياً، لا يقرأ في كتاب ولا تُملَى عليه أخبار الماضين وأساطير الأولين بكرة وأصيلاً⁽²¹⁾. ورست السنة الثقافية ذلك خير ترسيخ وجعلت محمداً لا يعرف القراءة ولا يعرف الكتابة. لقد شاء القرآن أن تكون العرب أمة أمية تقابل أهل الكتاب بعث فيهم رسول منهم⁽²²⁾. ورست السنة الثقافية ذلك خير ترسيخ وجعلت العرب جاهلية جهلاء، لا تعرف القراءة، لا تعرف الكتاب، لا تعرف الحساب، لا تعرف الله، لا تعرف الأنبياء، غلقت عليها الأبواب، لا علاقة لها بغيرها من الأمم.

ونكنّ لا تظنّ أن الخطاب الديني العربي الإسلامي اختلّ فيه النظام، وقام مناهضاً للقرآن، مناهضاً للسنة التي رست القرآن. الخطاب الديني

(20) .ومنه الحديث: إن بني إسرائيل لما قصّوا هنكوا، وفي رواية: لما هلکوا قصّوا، أي اتكلوا على القول وتركوا العمل فكان ذلك سبب هلاكهم. أو العكس، لما هلکوا بترك العمل أخذوا إلى انقصص.. ابن منظور، لسان العرب، مادة قصص.

(21) الفرقان 5/25.

(22) الجمعة 2/62.

العربي الإسلامي كان على ذكاء ليس له مثيل. فهو إذ جعل اليمن مرتعاً للقصص وأخبار الماضين وأساطير الأولين، وفضاء لأهل الكتاب من نصارى ويهود، جعل عرب الجنوب على علاقة بهذه الأمور، ونجى منها عرب الشمال، فظّلوا، على لغة القرآن، أمة أمية لا تعرف الكتاب. وعرب الشمال تشكّلوا مَكَّة أم القرى التي على رأسها قامت قريش التي جادت بالمثلث النموذج الذي نجح من كلّ اختلاط، محمد بن عبد الله، النبي العربي الأمي.

كان اليمن في الجزيرة جنوباً أهله ينتسبون إلى قحطان رغم خصب الديار وثرأ السكّان وحبّ القصص والبيان. وكانت مَكَّة في الجزيرة شمالاً أهله ينتسبون إلى عدنان رغم قحط الديار وقلة الحال والافتقار إلى العلم والأخبار. فوزّع بينهما الخطاب الديني العربي الإسلامي الأدوار. جعل الشمال، مَكَّة وقريشاً ومحمداً الرسول، ذا الفضل في اكتشاف الدين الجديد، دين الإسلام. وجعل الجنوب، اليمن وأبناءه الأبرار هوداً وكعباً ووهباً المغوار، ذا الفضل في مدّ الشمال بما احتاجه من طويل الأخبار لإغناء قصصه الذي كان في البدء كثير الاختصار. جاد الجنوب على الشمال بما قصّ أهل الكتاب. جاد الجنوب على الشمال بما تشكّل في الخطاب فتناً اختير له الإسرائيليات اسماً. جاد قحطان على عدنان بما عنده فاكسب عدنان شرعية في ذاك الزمان، وبينّ للملأ من قومه والأجوار أنّه ذو علم وتحصيل وعرفان.

تبّنى الإسلام ما جاد به اليمن من أخبار. تبّنى الإسرائيليات، فأسلمت الإسرائيليات. فنسب كلّ أخباره التي حبر - أو كاد - إلى الإسرائيليات. فهل كان ما سمّى إسرائيليّات إسرائيليّات ؟ اسمع ترّ.

لقد اقتضت الحكمة أن يكون المخلوق في البدء واحداً ثمّ انقسم على نفسه مخلوقين اثنين، زوجين على علاقة أحدهما بالآخر، يحنّ هذا الزوج إلى ذاك الزوج، ويحنّ ذاك الزوج إلى هذا الزوج، كلّ شيء

يجمع بينهما ولا يفرّق. كذلك كانت الأرض والسماء. وكذلك كان الرجل والمرأة.

جاء في القرآن ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾⁽²³⁾، فدلّ ذلك على الوصل الذي كان بينهما ساعة الخلق، وقيامهما ملتصقين، جسداً واحداً مُكتفياً بذاته. وقد ظلّا في التحام حتى تمّ الفصل بينهما : «إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا أَي كَانَ الْجَمِيعُ مُتَصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، مُتَلَصِّقًا مُتَرَاكِبًا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ، فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ»⁽²⁴⁾.

في البدء كان إذن الوصل. ثمّ كان من بعدُ الفصل. ذلك ما اشتركت فيه الشقافات العديدة. انظر الهندَ تجدها، رغم اتساع الرقعة وتعدد النصوص وتعاقب الديانات عليها، قد حافظت على ثوابت في خصوص قصة الخلق. فما ضبطته الفيدا أكدته البراهمانية، وريثتها الشرعية، ولم تغيّره البوذية ولا الجاينية ولا قصص البورانا القديمة، رغم الاختلافات البيّنة بينها⁽²⁵⁾. لقد كانت تقرّ جميعا بالأصل المشترك للأرض والسماء : تلك

(23) الانبياء 30/21.

(24) ابن كثير، التفسير، ج3، ص 172.

(25) حافظت الديانات في الهند، رغم تعددها، على هيكل قديم واحد تعود أصوله إلى الفيدا Védas (النصوص الهندية المقدّسة الأولى في القرن 15 ق م). وأهمّ التحولات فيها تتمثل في البراهمانية Brahmanisme (التي رسخها رجال الدين Brahmanas نسبة إلى Brahma كبير الآلهة وخالق الخلق. ابتداء من القرن 10 ق م)، وفي البوذية (التي ظهرت في الهند في القرن 6 ق م ولكنها اضمحلت منها في القرن 7 م وهاجرت إلى الشرق الأقصى في جنوب شرقي آسيا)، وفي الجاينية Jainisme (وهي ملة وازت البوذية ظهوراً ولكنها لم تنتشر خارج الهند وتواصلت في مهدما الأصلي حتى الآن)، وفي البورانا القديمة Purānas classiques (وهي قصص دينية متأخرة تأليف تعود إلى ما بين القرن 3 م والقرن 8 م). انظر :

E. Universalis, articles : Hindouisme, Bouddhisme; M. Eliade & J. P. Couliano, Dictionnaire des religions, Paris, Plon, 1992, articles : Bouddhisme ; Hindouisme ; Jainisme ; Tibet (Religion de).

البيضة الروح التي كانت في البدء ثم انشطرت شطرين أحدهما من فضاء هو الأرض والآخر من ذهب هو السماء⁽²⁶⁾.

وانظر مصر الفرعونية تجدها قد وضعت حدود عالمها المقدس على أنقاض معتقدات شعبية كانت، على اختلافها، تقرّ جميعاً بأن الأرض والسماء - جاب Geb ونوت Nout - كانتا في البدء رتقا ففصل بينهما الإله شو Shou، رمز العالم المنير⁽²⁷⁾.

وانظر بلاد ما بين النهرين تجدها تشكّلت قصصاً بديعة، هذه من وضع سومر، وتلك من وضع أكاد، والأخرى من وضع بابل، تؤكّد جميعاً رغم الاختلافات الغريبة على أنّ البدء كان تكوّر الأرض والسماء من جسد تيامات Tiamat حين فتك بها مردوك Marduk وشرّ الجسد شطرين فتمّ الفصل⁽²⁸⁾.

وانظراليونان تجدها لم تخالف هذا الشكل فجعلت في البدء أورانوس Ouranos السماء متحدّاً مع قايا Gaia الأرض ففصل بينهما الابن كرونوس Kronos ساعة شبّ⁽²⁹⁾.

(26) وقد ورد في النصوص المقدّسة عندهم ما يلي :

«Au commencement il n'y avait que le Non-Etre. Il fut l'Etre. Il grandit et se change en oeuf. il se repose toute une année, puis fendit. Deux fragments de coquille apparurent : l'un d'argent, l'autre d'or. Celui d'argent : voilà la Terre, celui d'or : voilà le Ciel». A.-M. Esnoul, «La naissance du monde dans l'Inde», in La naissance du monde, Paris, Seuil, Collection Sources orientales, vol. 1, 1959, p. 345.

(27) العالم المنير : Atmosphère lumineuse. انظر خصائصه وقصص الفصل بين السماء والأرض في :

S. Sauneron, J. Yoyotte, La naissance du monde selon l'Egypte, in La naissance du monde, pp. 31, 45.

(28) M. Eliade, Histoire des croyances et des idées religieuses, Paris, Payot, 1991, t. 1, pp. 68-69.

(29) M. Eliade, Histoire des croyances et des idées religieuses, t. 1, pp. 260-263.

وإذا كان القرآن لم يُبين سبب قيام السماء والأرض رتقاً ولا سبب فتقهما والفصل بينهما، فإنّ قصص الثقافات الأخرى قد أسهبت في ذكر هذه الأسباب وتلك. كان الرتق، ساعة الالتصاق واللحم، يرمز إلى وصل السماء بالأرض، إلى وصل الربّ الأب الأكبر بالأمّ الوالدة الأولى. وكان الفصل إيذاناً بابتعاد السماء عن الأرض، بابتعاد الربّ عن تلك الأمّ. كان الوصل يمنع الأحياء من الوجود لانعدام الفضاء الذي يُمكن من الوجود. فجاء الفصلُ يخلق الفضاء الذي به يتمكن الأحياء من الوجود ⁽³⁰⁾.

كلّ شيء يُحدث بأنّ هذا الوصل كان يُمكن ذاك المخلوق الأوّل الملتحم الشطرين من الاكتفاء جنسياً بذاته، لا يحتاج إلى لذة من غير ذاته. فكان التحام السماء بالأرض ⁽³¹⁾ التحاماً جنسياً لا شكّ فيه، إنّ تسترت عليه بعض القصص فضحته أخرى ولم تستح. ها هي اليونان جعلت الفصل بين أورانوس السماء وقايا الأرض يتمّ ببتّر ذكر أورانوس الذي كان في قايا وكان جسده يُغطّي جسدها فلا يقوم عليها آخر، فدلّت بذلك على أنّ العلاقة كانت علاقة جنس. كان الربّ في تلكم القصص يحرق أرضه وبها ينفرد. كان وكانت جسداً واحداً. كان على لغة ميثولوجيا الخلق ينكح ذاته. كان خُنثى له في الآن نفسه ما للذكر وما للأنثى ⁽³²⁾.

كان وصل السماء بالأرض صورة للتناغم والتجانس في الكون الذي قام في البدء. أمّا الفصل بين السماء والأرض فصورة للتشويه والدموية وقيام الكون على العنف. هذا جسد تيامات البابلية يشطره مردوك شطرين بعنف. وهذه بيضة الهند تُكسّر كسراً عنيفاً إلى نصفين. وهذا

(30) M. Eliade, Histoire des croyances et des idées religieuses, t. 1, pp. 68-69.

(31) «وكان الحسن يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، قال الساء زوج والأرض زوج [...]»، ابن منظور، لسان العرب، مادة زوج.

(32) «الخُنثى الذي لا يخلص للذكر ولا أنثى، الخُنثى الذي له ما للرجال والنساء جميعاً»، ابن منظور، لسان العرب، مادة خنث.

كرونوس يبتز ذكر أبيه أورانوس بكلّ فظاعة وحقد. وهذا الإسلام يتدخل في الرق بالفتق والفتق شقّ وحرب وتصدّع وداء يصيب الإنسان والحيوان ونصل حادّ الشفرتين قاطع وفصل للرأس عن الجسد⁽³³⁾.

في عالم الفصل العنيف رفع الإنسان أباه الربّ عن أمّه الأرض وتمكّن من الحياة خارج عالم الربّ⁽³⁴⁾. ولكنّه ما إنْ فعل ذلك حتى وجد عالمه الأرض ريشة في مهبّ الريح وشعر بحاجته إلى استقرار الدار فشدّها بخيط إلى السماء التي ابتعدت عنها وربط بينهما علاقات وثقى فأنزل من السماء غيثها والملائكة والوحي والرسالات، وصعد من الأرض دعاءها والأرواح ومعراج الأنبياء. كان ذلك الربط حيناً إلى زمن الوصل الذي كان في البدء.

ها الفضاء نشأ، فماذا حدث ؟

حاكى الإنسان عالم الربّ والربّة وعلى منواله صاغ عالمه الأبقى. فإذا الإنسان في البدء خلّق واحدّ لاصقّ بعضه ببعض. اسمع الآيات ترسخ هذا المبدأ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا وَنِسَاءً⁽³⁵⁾ » ؛ « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ قُصِّلَتِ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ⁽³⁶⁾ » ؛ « هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا

(33) ابن منظور، لسان العرب، مادة فتق.

(34) يمثّل التحام السماء بالأرض مرحلة البدء الرامزة إلى منع الحياة، أمّا الفصل بينهما فخلق

لفضاء للحياة، انظر :

M.- L. Von Franz, Les mythes de création, Paris, La Fontaine de Pierre, 1982, p. 183-206.

(35) النساء 1/4

(36) الانعام 98/6

حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا⁽³⁷⁾ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁽³⁸⁾ .

كان إنسانُ البدءِ وفقَ هذه الآياتِ نفساً واحدةً ليس غيرُ. وكانت النفسُ في هذا السياقِ كلاً متكاملًا، إذ، النفسُ يُعبرُ بها عن الإنسانِ جميعه، ومعنى النفس فيه معنى جملةِ الشيء وحقيقته⁽³⁹⁾. فالنفس هنا لا هي الروحُ وحده، ولا هي الرُّوعُ وحده، ولا هي النفسُ وحده. بل هي هذه الأشياءُ وأشياء أخرى مثل الدم وجميع الجسد والصورة التي عليها الإنسان بالكلية وأحاسيسه والمشاعر. لذلك جعل المفسرون، على اختلاف مذاهبهم، النفسَ الواحدةَ الواردة في هذه الآيات آدمَ المخلوقَ الأوّل⁽⁴⁰⁾.

كان آدمُ البدءِ وحده من هذا الجنس. كان مكثفياً بذاته لا حاجة به إلى غيره من خارجه. ثم انقسم على نفسه فإذا به ذكر وإذا به أنثى. كان آدم البدء، على لغة القرآن، نفساً واحدة خلق الله منها زوجها. وإذا كان الزوج يُستعمل للدلالة على الفرد ذكراً كان أو أنثى⁽⁴¹⁾، كانت النفس التي انقسمت ذكراً وأنثى تحمل في ذاتها قبل انقسامها عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة. لذلك كانت مكثفية بذاتها. ها آدم الجنة مثله مثل الرب،

(37) الأعراف 189/7.

(38) الروم 21/30.

(39) «معنى النفس فيه معنى جملةِ الشيء وحقيقته. تقول : قتل فلان نفسه وأهلك نفسه أي أوقع الإهلاك بذاته كلها وحقيقته. ابن منظور، لسان العرب، مادة نفس.

(40) انظر مثلاً : الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، م3، ص 565 - 566 ؛ الزمخشري، الكشاف، بيروت، دار المعرفة، د ت، ج 1، ص240، ابن كثير، التفسير، ج1، ص424.

(41) ابن منظور، لسان العرب، مادة زوج.

مثله مثل إبليس، مثله مثل كلّ ملك، قائم وحده، لا حاجة به إلى غيره. ما هو وحده لا هو ذكر ولا هو أنثى، لأنّه كان الذكر والأنثى. وساعة انفصل وأصبح ذكراً وأصبح أنثى تغيّر وجه الكون، فحنّ الذكر إلى الأنثى وحنّت الأنثى إلى الذكر.

اسمع الآن قصّة في هذا الشأن خلّدتها فلاسفة اليونان :

حدّث أفلاطون عن أريستوفان قال : إنّ طبيعتنا في البدء لم تكن ما نحن عليه الآن. كنّا في سابق الزمان جنساً اضمحلّ الآن، أساسه الحنث. كان الإنسان أندروجين androgyne، ذكراً وأنثى في آن، شكله شكلهما إذا اجتمعا ووظائفه ووظائفهما معاً. كان له ما كان للذكر والأنثى من عناصر، حتى على مستوى الجنس كان له ما للذكر وما للأنثى. كان مُكتفياً بذاته. فاغترّ. ظنّ أنّه مثل الآلهة. صعد في السماء يغالب الآلهة. أغضب فعلّه الشنيع ربّ الأرباب، زوس العظيم. فكّر في الحال وأصدر حكمه العليّ: كسر شوكة هذا الإنسان الخنثى الأندروجين androgyne. ضربه ضربته القاضية. شطره شطرين. بعث منه إلى الوجود زوجين. هذا زوج ذكر وهذا زوج أنثى. حنّ الزوج الذكر إلى الزوج الأنثى، وحنّت الزوج الأنثى إلى الزوج الذكر. جعل نهمه فيها وجعلت نهمها فيه. كلّما انفصل عنها حنّ إليها، وكلّما انفصلت عنه حنّت إليه. تلهّى بها وتلّهت به وتلهيا بما كان من أبناء. شغلها كلّ ذلك عن التناول على الربّ. استتبّ الأمان وفاز الربّ بالاطمئنان وتفرّد وحده بالسلطان⁽⁴²⁾.

كانت آيات القرآن، وإنّ تسترّت بحسبان، تدلّ على ما دلّت عليه قصّة فلاسفة اليونان. فالزوج الذي خلقه الله من تلك النفس الواحدة

(42) انظر ،

Platon, Le banquet, Phèdre, Traduction et notes par E. Chambry, Paris, Garnier Flammarion, 1964, pp. 48-53 ; R. C. Zaehner, Inde, Israël, Islam. Religions mystiques et révélations prophétiques, Paris, Desckée de Brouwer, 1965, pp. 276-277.

خلقه ليكون للزوج الآخر سكناً⁽⁴³⁾، فقام الزوج يتغشى الزوج⁽⁴⁴⁾، فكان المستقرّ وكان المستودع⁽⁴⁵⁾. وقد استكمل ذلك السكن زيته بما جعل الله من مودة ورحمة بين الزوج والزوج⁽⁴⁶⁾، وما بثّ منهما من كثير الرجال والنساء⁽⁴⁷⁾. حنّ هذا الزوج إلى ذلك الزوج، وحنّ ذلك الزوج إلى هذا الزوج، وظلاً كذلك أبد الدهر، يحنّان بعضهما إلى بعض، لا يطيب لهما عيش إلا إذا تمّ بينهما الوصل. تلهّى الإنسان بزينه الحياة الدنيا واستوى الله وحده على العرش، بعد أن طرد من السماء الجنة ذلك الآدمي الذي كان في البدء مكتفياً بذاته، فظنّ نفسه من جنس الآلهة، خالداً خلودها، عالماً علمها. كان آدم البدء يهدّد الأمن والنظام في فضاء حضرة القدس، ففصل عن حضرة القدس.

كانت قصة خلق الإنسان في القرآن، وفق هذا المسار، شبيهة بقصة خلق الإنسان عند فلاسفة اليونان. هنا وهناك كان إنسان البدء جنساً تمّ فيه الانقسام فاضمحلّ وقام مكانه زوجان. ولكنّ مفسّري القرآن حادوا عن هذه القراءة التي تربط للقرآن علاقات مع أهل يونان، واختاروا القول بما قال به أهل الكتاب من بني إسرائيل، فجعلوا إنسان البدء ذكراً من الرجال حنّ إلى أنثى من جنسه فخلّقت له حواء في الحال.

جاء في تورااة اليهود : «قال الربُّ الإلهُ : ليس جيّداً أن يكونَ آدمُ وحدهً، فأصنعُ لَهُ مُعيَناً نظيرَهُ [...] فأوقعَ الربُّ الإلهُ سُبَاتاً على آدمَ فنام،

(43) الاعراف 189/7، الروم 21/30.

(44) الاعراف 189/7.

(45) انظر تفسير الآية : «هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، الانعام 98/6. في : الضري، جامع البيان في تأويل القرآن، م5، صص 281 - 286.

(46) الروم 21/30.

(47) النساء 1/4.

وفيما هو نائم أخذَ واحدةً من أضلاعيه وملاً مكانها لحماً. وبنى الربُّ الإبلَةَ الضِّلْعَ التي أخذها منْ آدمَ امرأةً وأحضرها إلى آدمَ. فقال آدمُ هذه الآنَ عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي. هذه تُدعى امرأةً لأنّها من امرئٍ أخذتُ. لذلك يتركُ الرجلُ أباه وأمه ويتحدُّ بامرأته فيصيران جسداً واحداً⁽⁴⁸⁾. فقام مفسّرو القرآن ينسجون على منوالِ تورااة اليهود ويوضحون ما جاء فيها بالحجّة والشاهد ويزيدون ما عنّ لهم وبأن، فقالوا، استناداً إلى ما ذكر لهم ثقاتُ المسلمين من اليهود، إنّ حواء خلقت من ضلع آدم وهو نائم⁽⁴⁹⁾. ثم تفتنوا في وصف تلك الضلع العجيبة، فجعلوها اليسرى من الأضلاع⁽⁵⁰⁾ واختاروا من هذه الضلع اليسرى جزءها المعوجّ ليكون مادّة الصياغة والخلق. وقد كان لطبيعة هذا الخلق تأثير في طبيعة المخلوق فحواء إذ «خلّقت من الرجل قد جُعِلت نَهْمَتُها في الرجل⁽⁵¹⁾». وهي إذ خلّقت من ضلع معوجة جاءت معوجة: «إنّ المرأة خلّقت من ضلع وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه فإنّ ذهبت تقيمه كسرته وإنّ استمتعت بها استمتعت وفيها عوج⁽⁵²⁾».

لقد فوّت المفسّرون على «النفس التي خلّق منها زوجها» فرصة لإقرار المساواة والأصل المشترك وتحمل المسؤولية معاً. فضاعت تلك النفسُ في متاهات الفصل وإقامة الحدود بين زوجيّها، وأصبح ما وُضع

(48) العهد القديم، سفر التكوين، 22-21/8.

(49) ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 424 وكذلك ج 1، ص 76.

(50) انظر مثلاً، محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، بيروت، دار الفارابي/تونس، العربية، ج 1، ص 182.

(51) ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 424 وكذلك ج 1، ص 76.

(52) «خلّقت المرأة من الرجل فجُعِلت نَهْمَتُها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجُعِلت نَهْمَتُه في الأرض فاحبسوا نساءكم. وفي الحديث الصحيح: إنّ المرأة خلّقت من ضلع وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه فإنّ ذهبت تقيمه كسرته وإنّ استمتعت بها استمتعت وفيها عوج»، ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 424 وكذلك ج 1، ص 76.

للانسجام والتساوي شكلاً من أشكال التفريق والميز، وما كان يمكن أن يُشكّل أصلاً شريفاً للمرأة نوعاً من الدونية تُعبّر عنها تعبيراً صارخاً هذه الضلع التي اختار القول بها كلّ المفسرين منذ الطبري حتى الآن⁽⁵³⁾.

هكذا حاك الخطابُ الديني العربي الإسلامي لامرأته الضلع لبوساً على منوال التوراة وقصص الإسرائيليات فجاءت ضلّعاء عوّجاء لا سبيلاً إلى الاستقامة فيها، حتى صاح عبد الله بن عباس في الناس : «ألا احبسوا نساءكم»⁽⁵⁴⁾.

فما هذه الضلع التي قامت في الإسرائيليات بديلاً للنفس ؟

يبدو - والعهد في ذلك على أهل الحفر في الماضي وإحياء الذكرى - أنّ العملية لا تعدو أن تكون مجرد صدفة، جاءت نتيجة تحريف أصاب دخيلاً في اللغة. يبدو أنّ الضلع تسرّبت إلينا عبر اليهود من سومر التي ابتدأ فيها الكون وكان لها السبق في أمور الدين والشرع وعالم الآلهة الكثر⁽⁵⁵⁾. لقد تقارب في لغة سومر لفظان هما الحياة والضلع، فوضعوا ti لهذا و til لذاك، ورمزوا إلى ذلك في علم الكتابة عندهم بالرمز ذاته، فلمّا نقل كتبة اليهود قصة الخلق عنهم نقلوا الحياة ولكنهم ظنّوها الضلع، فأخطؤوا التدبير⁽⁵⁶⁾، وأخطأ من ثمة زملاؤهم من بعد، أولئك المسيح والمسلمون.

(53) انظر مثلاً : الطاهر ابن عاشور، التحرير والتوير. تونس، الدار التونسية للنشر، 1984.

ج 4. ص 215.

(54) ابن كثير، التفسير، ج 1. ص 424 وكذلك ج 1، ص 76.

(55) انظر : S. N. Kramer, L'histoire commence à Sumer, Paris, Flammarion, 1994.

(56) ذكر بوتيرو ما يلي :

«Un jeu de mots sumériens entre "côte" et "vie", écrits par le même "idéogramme" et prononcés également ti ou til [serait à l'origine de ce malentendu]. Il pourrait donc y avoir là réminiscence mésopotamienne», J. Bottéro, «La naissance du monde selon Israël», in La naissance du monde, p. 221.

لولا هذا التحريف في قراءة النصوص لجاءت امرأة التوراة وأختها امرأة الإسلام جزءاً من حياة، أي من نفس على لغة القرآن، والنفس في اللغة نفس يتردد وحياة لا تغنى⁽⁵⁷⁾. لو لا هذا التحريف في قراءة النصوص لكان الرجل والمرأة حياة ذكراً وحياة أنثى «عيش وعيشة» على لغة تورااة اليهود⁽⁵⁸⁾، لا يستقيم لهما الوجود إلا في ظلّ السكن الدائم اللذيذ، تخليداً لذكرى وصل قديم. ولكنّ أحبار اليهود حادوا عن فهم هذا الوجود في ذاك الزمن السحيق، وعلى منوالهم نسج رهبان المسيح، ومن بعدهم نسج على ذلك المنوال القديم علماء الإسلام.

كان قصاص الإسلام لا يستطيعون القصّ عن القرآن إلا إذا زيّنوه بالاسرائيليات، حتى رأوا الاسرائيليات في كلّ قصة. تصوّروا أنفسهم أمة أمة لا يستقيم لها خطاب إلا إذا دخل فيه من أمة الكتاب نصيباً. فقامت الاسرائيليات تُكسب الشرعية ذاك الخطاب.

كانت العرب سامية النسب. كانت ثقافة سامية، بنت فكر سامي. والفكر السامي يدور على نفسه. منذ اكتشف التوحيد وإبراهيم ظلّ مكانه لا يتقدّم. هذا موسى يتبنى إبراهيم أباً لليهود ويبنّي نظامه على أنقاض نظامه. وهذا المسيح يُسقط دين موسى ليبنّي على أنقاض دين إبراهيم. وهذا محمد يُسقط دين النصارى، يُسقط دين اليهود، ويبنّي الإسلام على حنيفية إبراهيم أبيه. كذلك هو الدين عوداً على بدء جميل.

وحيد السعفي

(57) ابن منظور، لسان العرب، مادة نفس.

(58) العهد القديم، سفر التكوين، 25-18/2.